

# المأساة الوجودية في « اللص والكلاب »

بقلم إيار أحمد صالح

\*\*\*\*\*

انتهى بضياح تلك الحياة وتحطيمها : لقد اصطدم سعيد بالنواميس منذ خرج من السجن ليواجه الحياة من جديد. ذهب يحاول استرجاع امواله وكتبه وابنته فوجد القانون والسلطة والشريعة تقف كلها في وجهه . ثم اراد ان ينتزع حقوقه تلك بنفسه ، وشرع في العمل فوجد القانون يحمي الخونة والصوص الحقيقيين . وغضب سعيد ونقم ، وكفر بكل الشرائع والقوانين ، وبكل النواميس . ووقف يفكر ويتأمل فيما حوله ، بل وعاد يذاكرته الى الماضي فلم يجد الا الظلم والظلام ، والا الفساد والاختلال . ووجد انه لا بد له من ان يياس وان يفكر بعديل هذه الدنيا الفاشمة. اذ اي عدل هذا السذي يبيح لاهه ان تموت لانها لا تملك ثمن الدواء؟! واين العدل عندما يشي به شريكه اللص عيش ليتزوج من امراته ويستولي على امواله - بصرف النظر عن مصدر تلك الاموال - !! وما هو هذا العدل والقانون الذي يحول دونه ودون ابنته؟ وهل من العدل في شيء ان يحمي رجال البوليس والمخبرون بعض اللصوص ويعاقبوا البعض الاخر؟ .. ووقف سعيد وسط كل هذا الاختلال يعلن عزمه على التمرد والصراع وعلى التحدي والكفاح . وعن ذلك التحدي للنواميس والسلطة ، وللشرايع والقوانين ، وعن التصادم الفظيع مع قوى الشر والفساد نتج الصراع الدامي وتولدت المأساة العنيفة فـ « اللص والكلاب » .

اما الالتزام الوجودي في المأساة فواضح جلي : لقد صمم سعيد مهران على محاربة الخونة ، واللصوص الحقيقيين ، والانتهازيين الوصوليين الذين يخونون مبادئهم ويتكسرون لضمائرهم واقوالهم وتعاليمهم ، امثال نبوية وعليش ورؤوف علوان . وكان سعيد لا يجد مفرًا من الكفاح ضد قوى الفساد هذه وضد شر هذا العالم السذي اصابه منه نصيب وافر ، وذلك على الرغم مما في ذلك من صعوبة ومسؤولية وتفحيط . ولقد وضع امر هذا الالتزام والمسؤولية الترتيبية عليه امام التساؤل ، فوجد انه لا مهرب له منه مهما كان الثمن . يقول : « هل يمكن ان امضي في الحياة بلا ماضي فاتناسي نبويه وعليش ورؤوف ؟ ولو استنطعت لكنت اخف وزنا واضمن للراحة وابعد عن جبل المشقة ، ولكن هيهات ان يطيب العيش الا بتصفية الحساب . لن انسى الماضي لسبب بسيط هو انه حاضر - لا ماض - في نفسي » . ( ص ٤٨ ) ثم يقول في مكان اخر محدثا نفسه عن نفسه : « ولكنه - هو - لن ينثني عن عزمه ، ولو عاشت سناء وحيدة العمر كله . ذلك ان الخيانة بشعة جدا يا استاذ رؤوف .. الخيانة بشعة يا عليش . ولكي تصفو الحياة يجب اقتلاع الخبائث الاجرامية من جذورها . » . ص ٧٦ واخيرا تطور معنى هذا الالتزام في نفس سعيد وتعمق وتواصل فلم يعد يفكر براحة الانسحاب ، ولا بضمير سناء ومستقبلها . نسي كل ذلك عندما تحول الالتزام عنده الى شبه رسالة مقدسة وهبها حياته كلها :

« .. وانت هل لحياتك التالفة من معنى الا ان تقفي على اعدائك .. ولكن ما معنى حياتك ان لم تؤدب اعدائك ؟ ولن تحول قوة دون تاديب الكلاب . اجل لن تحول دون ذلك قوة .. فلكي يكون للحياة معنى وللموت معنى يجب ان اقتلك ( يا رؤوف ) . لتكن اخر فضبة اطلقها على شر هذا العالم .. » ص ١٢٣ و ١٢٥  
بعد هذا التصميم الشديد والاصرار البالغ على الالتزام وعلسى

تنشأ المأساة الوجودية عامة عن عجز ارادة الانسان امام النواميس . فالانسان الوجودي اليوم يجد نفسه مضطرا لان يلتزم موقفا ايجابيا تجاه مشكلات وجوده ، كما يجد ان عليه ان يختار سبيل ذلك الموقف وطريقه ، وان يكون مستعدا لتحمل مسؤولية ذلك الاختيار كاملة . ولكن حريته في الاختيار تصطدم بحاجز من الضباب مرده عدم الايمان بمثل عليا معينه ، وبالعالم غيبي وراء هذا العالم وخارج هذا الوجود المحسوس . ومن هنا كان الاصل - في تولد المأساة الوجودية عند الانسان المعاصر . ومن هنا كان ضياعه وقلقه ، وكان اغترابه وتخطبه . وهذه كانت بالضبط مأساة سعيد مهران في « اللص والكلاب » :

خرج سعيد من السجن وهو لا يفكر الا بعالم واحد هو عالم وجوده ، ويصر على تصفية مشكلاته بنفسه وفي هذه الدنيا بالذات . وانصرف بكل اهتمامه الى معالجة شؤونه الحياتية الخاصة ، والى مشكلاته الوجودية التي رفض ان يترك للعادل الاعظم امر تسويتها في عالم وراء هذا العالم وحياء بعد هذه الحياة . اذ ان عالم الآخرة والغيب الذي كان يحدثه عنه الشيخ علي الجنيدى بالرموز لم يكن ليخطر له ببال ، او ليجد مكانا في عقله وشعوره . ولما كان الشيخ علي الجنيدى - مثلا - يقول له « (١) : « توشا واقرا » ، كان سعيد يجيبه بلهجة شاكية ، وبانصراف كلي الى مشكلاته الحياتية ووجوده الواقعي قائلا : « انكرتني ابنتي ، وجفلت مني كاني شيطان ، ومن قبلها خاتنتي امها ! .. خاتنتي مع حقير من اتباعي ، تلميذ كان يقف بين يدي كالكلب ، فطلبت الطلاق محتجة بسجني ثم تزوجت منه . » .. ولما كان يعود الشيخ ليقول له برفقة ثانية وثالثة الخ : « توشا واقرا » كان سعيد ينفجر قائلا باصرار وبعموس وانفعال : « ومالي ، النقود والحلي ، استولى عليها ، وبها صار معلما قد الدنيا وجميع انذال العطفة اصبحوا من رجاله .. لم يقبض علي بتدبير البوليس كلا كنت كمداتي واثقا من النجاة ، الكلب وشي بي ، بالانفاق معها وشي بي ، ثم تابعت المصائب حتى انكرتني ابنتي .. »

وهكذا كان سعيد مهران لا يحس بعالم غيبي قد لا يكون وقد لا يوجد ، ولا يعترف الا بالواقع الموجود . وكان لا يرى غير نفسه وسط الاحداث التي اصطدم بها ، ولا يهتم الا بمشكلاته والامه التي طفى شعوره بها على كل شعور اخر ، وحتى على شعوره بحب نور الطيبة . ومن هذا الاحساس العميق بالوجود - وبوجوده الواقعي هو بالذات - كان على سعيد ان يختار الطريق الذي سيلتزمه لحل مشكلاته بنفسه . ومن حتمية هذا الاختيار وضرورته وسط ظلمة وجهل بالحقيقة ، وبعبدا عن اي مرشد او معين ( خاصة بعد ان تخلى عنه رؤوف علوان وخذله ) ، وامام تحمل مسؤولية ذلك الاختيار كاملة ، من كل هذا نشأت مأساة سعيد مهران العنيفة .

لقد رأى سعيد الفساد والخيانة والظلم الاجتماعي والاختلال يطبق على كل ما حوله مثل قبة السماء . وارد ان يغير كل ذلك وينجدها ويحاربه . لكنه عجز وحده بعد ان اصطدم بجبروت النواميس وقوة القوانين العاتية ، وبمقاومة قوى الشر والفساد ذاتها . ومن هنا كانت حياته - في القصة - وحده وغربة وضياعا والمأ ، وفشلا

«١» راجع الحوار بينهما في الصفحات ٢٨-٣١ وغيرها .. في القصة

الكلاب ، ويطارده - فوق كل هذا - الشمل والعذاب والعبث . وادرك انه « مطارد وسيظل مطاردا الي اخر لحظة من حياته » (ص ٨٩) وازداد وعيا باحساس المطارد « فشارك الثران والشعابين مشاعرها حين تتسلل » (ص ١١٥-١٣٦ ) « وآمن سعيد بان الحوادث تطارده كالبوليس » (ص ١٥٩) بعد اختفاء نور وقدم صاحبة الشقة لتؤجرها لاول قادم . واخيرا « تصاعف احساسه بالمطاردة والوحدة والقلق ، وادرك انه لايمكن ان يستهين بكتلة الاعداء المفعمة شهوة وخوفا .. » (ص ١١٧) وهكذا يقنن سعيد اخيرا انه قد هزم امام قوى اعدائه الاشداء ، وان حياته قد ضاعت عبثا : « اخيرا جاءت الكلاب وانقطع الامل . ونجا الاوغساد ولو الى حين . وقالت حياته كلمتها الاخيرة بانها عبث .. ولا أمل في الهروب من الظلام بالجري في الظلام . نجا الاوغساد وحياتك عبثت (ص ١٧١ - ١٧٢ )

ولكن ماهو المفزى الحقيقي وراء هذه المأساة الوجودية في « اللص والكلاب » عند نجيب محفوظ ؟ وهل حقا كانت جهود سعيد مهران وحياته عبثا ؟! لقد خرج سعيد من السجن ناقما على الدنيا الظالمة واناسها جميعا : المستكين النائم منهم ، والكلب الخائن ، واللس الحقيقي التسلط المستغل . خرج ليعلم تمرده الصارخ على الفساد والظلم ، وعلى الاختلال الاجتماعي وفي طبيعته الخيانة . خرج ليقتضي على بعض الخونة انتقاما لما انزلوه به شخصا من غدر وخذلان . وكان يدرك بان عليه ان ينتظر طويلا وان يدبر امره قبل ان ينقض على اعدائه كالحدأة . لكنه لم ينتظر ، او هو لم يستطع الانتظار بل اندفع يعلن نغمته بلا عقل وبلا وعي وبلا تنظيم ، اندفع وحيدا بعيدا عن اي مرشد او معين يعالج اموره الشخصية فحسب ، وصمم سعيد على قتل رؤوف علوان رمز الخيانة والعبث ، لان « الرصاصة التي تقتل رؤوف علوان تقتل فسي الوقت نفسه العبث ، والدنيا بلا اخلاق تكون بلا جاذبية ، ولست اطعم

مجازبة قوى الشر من حوله ، بدأ سعيد بالعمل . وكانت كل عناصر مأساته كاملة في الطريق الذي اختاره للعمل . لقد حمل مسدسه وخرج في الظلام فردا وحيدا ، تغمي النجمة بصيرته وتلهب مشاعره وتحتة على السرع في الانتقام ، وتجعله يطلق الرصاص دون ترو ، بلا وعي ، وعلى غير هدى . وكان من غير المعقول لمثل هذا الشخص بطريقته الفردية غير المنظمة ، وبفسيته المضطربة الهانجة ان ينجح في تحقيق شيء ايجابي . وهذا ما حصل بالفعل . ومن هنا يمكن تفسير الفشل الدائم الذي حالف سعيد مهران انشاء حربه لقوى الفساد ومثليها من حوله . فقوى الفساد لم تكن ضعيفة وانما كانت قوية متحدة متحالفة ومسيطر على القانون والسلطة والثروة ، وعلى كل مرافق الحياة بما فيها الصحافة . اما سعيد مهران فكان ضعيفا وحيدا أزول . نعم كانت ملايين الناس تحس به وتعطف عليه ، بل وتؤيده . ولكن تاييدها كان من النسوع السلبي الذي لم يقدم لكفاحه شيئا على الصعيد العملي . وكان سعيد يدرك ذلك فيقول : « .. وعطف الملايين عليك عطف صامت عاجز كأماني الوتي . ص ١٤٨ اما الدين فلم يقدم له شيئا البتة . لقد حاول سعيد ان يطلب حمى الدين وعونه ، لكنه لم يظفر منه حتى بالتزبية او بالتأييد السلبي الذي كان يظفر به من جماهير الناس كما يتضح في هذا الحوار بين الشيخ علي الجنيدى وسعيد مهران : « ص ٢٥ - ٢٦ » .

انت تريد بيتا ليس الا ..  
ليس بيتا فحسب ، اكثر من ذلك ، اود ان اقول اللهم ارض عني ..  
فقال الشيخ كالمترنم :

فقلت المرأة السماوية : « اما تسخي ان تطلب رضا من لست عنه براض ؟! » وضج الغلاء في الخارج بنهيق حمار ختم بحشرجة كالبكاء . وغنى صوت لا حلاوة فيه « البخت والقسمه فين » .

وهكذا قدر لسعيد ان يعاني وحده كل معاني المأساة الوجودية وعناصرها ، وجد نفسه وحيدا بلا نصير يعاني الوحدة ، والضياع والاعتراب ، وعدم الانتماء .

ها هو « وحيد بكل معنى الكلمة ( ص ٩٨ ) » .. وحيد عليه ان يحذر حتى صورته في المرأة « (ص ٩٨) وعليه ان يكابد « الظلمة والصمت والوحدة مادامت الدنيا لا تريد ان تغير من عاداتها السيئة .. » (ص ١٠٥) وها هو يجد نفسه ضائعا : ضائعا منذ اللحظة التي انكرته فيها ابنته « لقد شعر ساعتها بان قلبه قد انكسر ، « انكسر حتى لم يبق فيه الا شعور بالضياع » (ص ١٧ ضائعا بلا اصل وبلا جذور منذ تخلى عنه رؤوف علوان الذي خلقه ثم ارتد : « تخلفني ثم ترد ، تغير بكسل بساطة ففرك بعد ان تجسد في شخصي ، كي أجد نفسي ضائعا بلا اصل وبلا قيمة وبلا أمل ، خيانة لقيمة لو اندك المقطم عليها دكا ماشفيت نفسي » (ص ١٧) واخيرا ضائعا بلا اهل وبلا مكان ولا بيت ولا ماوى منذ اللحظة التي خرج فيها من السجن وحتى لحظة مصرعه في العراء بين القبور .

وها هو يجد نفسه غريبا في دنيا طفى شرها ، واستفحل فيها امر طيقة القلة من الناس اللصوص الحقيقيين . لقد شعر بانه اصبح غريبا حقا منذ اللحظة التي وقف فيها امام مبنى جريدة « الزهراء » الضخم ، يوم ذهب يسأل عن رؤوف علوان بعد مفارته السجن مباشرة ، وشعر بالاعتراب عندما ادرك ان رؤوف قد اصبح من هؤلاء الذين كان قديما يرمى امثالهم بعين تود ذبحهم (ص ٢٤) ثم ازداد شعوره بالاعتراب عندما وجد نفسه هاربا مطاردا ، وبعد ان هجر دنيا الناس الملوثة بالفساد ليقيم بجوار القرافة ، المكان الوحيد الذي لم يفسد هواؤه ، على حد قوله .

ليس هذا فحسب ، بل انه وجد نفسه ايضا مطاردا منذ اللحظة التي افرج فيها عنه : تطارده الاحداث ، ويطارده البوليس ، وتطارده

## شعر

### من منشورات دار الاداب

فدوى طوقان	وجدتها
فدوى طوقان	وحدي مع الايام
فدوى طوقان	اعطنا حبا
شفيق معلوف	عيناك مهرجان
سليمان العيسى	قصائد مربية
صلاح عبد الصبور	الناس في بلادي
احمد عبد المعطي حجازي	مدينة بلا قلب
عبد الباسط الصوفي	ايات ريفية
سليمان العيسى	رسائل مؤرقة

### دار الاداب

بيروت - ص.ب ١٢٢٣

## المكتبة المصرية للطباعة والنشر

صيدا - بيروت

لصاحبها شريف عبدالرحمن الانصاري

تأسست سنة ١٩٠٥

تلفون ٢٣٧٥٤٥

\* \*

اغنى دور النشر فى لبنان بالكتاب المدرسي الموضوع من قبل اشهر الاختصاصيين فى فن التربية والتعليم بحيث اصبحت كتبها محط انظار المربين والقيمين على الشئء اللبناني وموضع رعاية من وزارة التربية الوطنية الجليله التى اوصت مدارسها بتدريس اكثر هذه الكتب فى مدارسها بالقرار رقم ٣٧٣٤ الصادر فى ٨ تموز ١٩٥٤

من اهم هذه المؤلفات : عدد الاجزاء

٢	للأطفال	الطريقة الجديدة
٢	للأطفال	الطريقة المفيدة
٥	للإبتدائي	القراءة المفيدة
٢	للأطفال	الطريقة الواضحة
٥	للإبتدائي	القراءة الواضحة
٤	للإبتدائي	الجغرافيا الإبتدائية الحديثة للإبتدائي
٤	للإبتدائي	الجغرافيا العامة المصورة للتكميلي
٤	للإبتدائي	تاريخ لبنان
٨	للإبتدائي	الحساب الحديث المصور للإبتدائي
٩	للإبتدائي والتكميلي	النهج الواضح فى قواعد اللغة للإبتدائي والتكميلي
٤	للإبتدائي	الجغرافيا الواضحة للإبتدائي
٥	للإبتدائي	المفيد فى دروس الأشياء للإبتدائي
٥	للإبتدائي	دروس الأشياء بالمحادثة للإبتدائي
٤	للإبتدائي	الأخلاق بالقصص للإبتدائي
٥	للإبتدائي	أنا أتعلم واجباتي للإبتدائي
٨	للإبتدائي والتكميلي	المفيد فى الإنشاء للإبتدائي والتكميلي
٥	للإبتدائي	العلوم والأشياء بالملاحظة للإبتدائي
١٤	للإبتدائي والتكميلي والثانوي	أحدث قواعد الرسم للإبتدائي والتكميلي والثانوي
٥	للإبتدائي	السلاسل الحديثة لتعليم الخط الرقعي للإبتدائي
٥	للإبتدائي	دفاتر الخط الفرنسي للإبتدائي
٥	للإبتدائي	دفاتر الخط الإنكليزي للإبتدائي

في اكثر من ان اموت موتا له معنى « . (ص ١٤٢) كما يقول سعيد : اما عند القضاء فكان سعيد قد كفر به منذ خرج من السجن ليجسد القانون يحمي عيش سدره ويحول بينه وبين ابنته وماله . ثم انه كيف يطمئن على قضااته وبينه وبينهم « خصومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام ؟! انهم اقرباء للوعد (رءوف علوان ) ويفصل بينه وبينهم قرن من الزمان « . (ص ١٤٧ - ١٤٨ ) ولكنه هو نفسه واثق انه على حق ، وقد زارته روح خادم رءوف علوان لتقول له بان « ملايين هم الذين يقتلون خطأ وبلا سبب . . » وقاضي اليسار غمز له بعينه فليبشر . وهو واثق بان مهنته مشروعة ، مهنة السادة في كل زمان ومكان . مهنة الانبياء والعظماء الذين وقفوا ليغيروا الكون من اساسه ويعيدوا بناءه من جديد ، وليتحدوا تقاليد الناس التي تعفت وبلبت ، وفسادهم الذي طفى واستفحل . وهو موقن بان القيم الزائفة حقا هي فقط التي تقدر حياته باللااليم وموته بالف جنبيه . وهو موقن ايضا بانه عظيم : «عظيم بكل معنى الكلمة عظيمة هائلة ولكنها مجللة بالسواد عشييرة للمقابر ولكن عزتها ستبقى بعد الموت . . ان من يقتلني انما يقتل الملايين . انا الحلم والامل وفدية الجبناء ، وانا المثل والعزاء والدمع الذي يفضح صاحبه . . » (ص ١٤٨)

كان بعض الناس يرى في سعيد « منبها مسليا في الملل الراكد » . ولكن الحقيقة كانت اكبر من ذلك واعمق . ان اكثرية الناس كانت تتحدث عنه كانه عنتره ، وكانت مشغولة باخباره تعطف عليه ولا تخافه . وكانت مأساته الحقيقية - كما يقول - : « انني رغم تأييد الملايين اجندي ملقى في وحدة مظلمة بلا نصير ، ضياع غير معقول ولن تزيد رصاصة عنه عدم معقوليته ، ولكنها « وهنا كل الغزى » ستكون احتجاجا داميا مناسباً على أي حال ، كي يطمئن الاحياء والاموات ولا يفقدوا آخر امل . . (ص ١٢٩)

واذن فمحاولة تمرده كلها لم تكن الا هذا الاحتجاج الدامي المناسب الذي كان لابد له من ان يسبق الثورة القادمة لا محالة لتقضي على ظلام العالم القديم وعلى فساده وشوره . لم تكن الا هذا الاحتجاج الدامي المناسب الذي جاء نبه النيام الذين هم اصل البلاد لانهم هم خلقوا نبوية وعليش ورءوف علوان . . واخيرا لم تكن الا هذا الاحتجاج الدامي المناسب الذي جاء يمهد للعمل المنظم ويبشر بالفجر القريب قبل ان يفقد الناس اخر امل وسط كل ذلك الظلام والصمت والركود والملل المحيط بهم . وهم كان يود سعيد مهرا « لو يتصل بالناس ليعرب لهم عما يهز صدره في الصمت والوحدة ، وليؤكد لهم بانه سينتصر ولو بعد الموت . انه وحيد حيال الجميع ولكنهم لا يعلمون . لم يفقهوا بعد حديث الصمت والوحدة ، ولا يفطنون الى انهم ايضا لهم حديث صمت ووحدة ، والمرأة التي تعكس صورهم باهتة مضللة فيتوهمون انهم يرون قوما غريبا . » (ص ١٠٧)

وهكذا فان كفاح سعيد مهرا - في الحقيقة - لم يذهب سدى ، وحياته لم تذهب عبثا ، وانما كان في تمرده على فساد الحاضر واختلاله يمهد لبعث المستقبل واصلاحه . وان يكن سعيد قد اطلق صرخته في « الليل الراسخ والظلام جدار اسود يسد الطريق » ، الا انه كان يعلم بان صرخته تلك كانت تحمل بذور النجاح - ولو بعد موته - لانها كانت تمهد الطريق امام العمل المجدي ، وتبشر بالفجر القادم ، وتوقظ النيام - اصل كل بلاء - وتجعلهم ينتبهون ويستعدون لاستقبال شمس اليوم الجديد . وقد كان سعيد - الى اخر لحظة من حياته - موقنا بان الاوغاد قد نجوا فقط الى حين . وكان - حتى وهو يلفظ انفاسه الاخيرة - يرى ان الاوغاد والكلاب قد « تراجعوا وذابوا في الليل ، وانه لابد قد انتصر . » (ص ١٧١ - ١٧٠)

إباد احمد ملحم

جامعة بيروت الاميركية